٤٥

المعرفة الاستشراقية: طبيعتها ووظيفتها

د. عبد النبي اصطيف (*)

الاستشراق معرفة موضوعها الشرق، ينتجها غالبًا «الآخر» غير الشرقي، عن هذا الشرق الذي يضيق فيقصد به «الشرق العربي» الذي يشمل الوطن العربي وبعض دول الجوار من مثل تركيا وإيران، ويتسع فيشمل الشرق الأدنى والأوسط والأقصى وما بينها من أمصار تقع إلى الشرق من أوربة الغربية التي نظرت إلى نفسها على أنها مركز العالم وجعلت توزعه إلى قارات ومناطق وتتدبره معرفيًا قبل أن تتدبره عمليًا ولا سيما في قرني المدّ الإمبريالي. وإنتاج هذه المعرفة قد يعزى إلى الفضول حينًا، ويعزى إلى الخوف حينًا آخر، عندما يولّد الخوف العداوة والبغضاء فيولّدان بدورهما حس المواجهة التي يسعى كل طرف منهما إلى

(*) د. عبد النبي اصطيف: أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث في جامعة دمشق. يصدر له قريبًا كتاب «نحو استشراق جديد» في كل من لندن ونيويورك عن دار النشر كيرزن/ روتلدج.
- العمل الفني: الفنان زهير حسيب.



توظيف كل الأسلحة والأدوات والوسائل فيها من أجل ترجيح كفته إزاء الآخر، المختلف، الذي ينبغي للذات أن تدخله في نطاقها فيغدو المؤتلفَ المثيلَ في كل شيء ويتبدد عندها الخوف، والإنسان أبداً عدو ما يجهل.

والمقصود بهذه المعرفة بالطبع ليس هذا «الآخر» الذي هو موضوعها، ولا شأن له بها، فقد أنتجت لتخدم مجتمع منتجها في مواجهته لهذا «الآخر» في لغة يفهمها، ومن خلال إطار مرجعي يعقله، وهو في النهاية مموّل عملية الإنتاج هذه والمشرف عليها على نحو غير مباشر أو مباشر عن طريق مؤسسات إنتاج المعرفة التي يقيمها لأغراض عامة أو خاصة، وهذا طبيعي جداً فلكل مجتمع مؤسساته التي ينتج من خلالها المعرفة التي تعينه على تدبر مختلف وجوه حياته وعلاقاته الداخلية والخارجية. وسواء أأدرك منتج هذه المعرفة حقيقة ارتباط ما ينتجه منها بحاجات مجتمعه (الذي يتابع عملية إنتاجها بدءاً من إعداد منتجها وانتهاء بها مجسدة بشكل من الأشكال) أم لم يدركها، فإن

المعرفة المتصلة «بالذات» والنفس عامة، و«الآخر» خاصة ما كانت بعيدة في يوم من الأيام عن علاقات القوة والسلطة التي تربط بين الأنا والآخر، أو بين «نحن» و «هم»، أو بين «الغرب» و «الشرق» في حالتنا الآن. يكتب الدكتور رضوان السيد عن دارسين ألمانيين (هما هلموت ريتر ورودي بارت) «أبدع أولهما في مجالات تاريخ الفكر الديني الإسلامي والدراسات الأدبية العربية والفارسية والتركية. ونذر ثانيهما نفسه في العشرين سنة الأخيرة من حياته للدراسات القرآنية»، مؤكداً أن لا شأن لأي منهما فعلاً بصراعات الشرق والغرب، ولكنه يضيف مستدركًا فيقول:

«لكن الاستخدام الوظيفي للمعرفة لاتحدده نوايا الفرد الكاتب. ثم إنه يعرفون أن مجتمعاتهم هم تحيطهم بالشكوك مثلما يفعل المسلمون؛ وإن اختلفت الأسباب. والدولة الغربية الحديثة من السطوة وأسباب التحكم بحيث تستطيع- وهم يعلمون ذلك- أن تستخدم نتائج دراساتهم في القنوات التي تريد، والتي تخدم مصالحها في بلادنا. والغِرُ فقط- مناومنهم- هو الذي يرى في دراسات وات (البريطاني) وموبين ورودنسون (الفرنسيان) وبارت (الألماني) عن نبيِّ الإسلام؛ اختلافات منهجية أو مصادفةً بحتة. ولسنا من قِصر النظر في الوقت نفسه بحيث نعتبرهم المسؤولين الرئيسيين فكريًا عن صورتنا وصورة الإسلام المعاصرة بالغرب. وقد أوضح إدوارد سعيد في كتابه: تغطية الإسلام، أن وسائل الإعلام الحديثة هي التي تصنع الصورة والرأي؛ بحيث يتعذر على الشجعان والموضوعيين والمعتدلين منهم (إن وجدوا التصدّي لوسائل صناعة الرأي العام في قضايا الشرق الإسلامي وأحداثه» [١].

والحقيقة أن:

أولـ: ما يلاحظه المتفحص لطبيعة هذه المعرفة الاستشراقية أنها مؤسسة على جهل عريق. فقد كانت بداياتها الأولى والتي استطالت وامتدت نحوًا من عشرة قرون قائمة على جهل غريب من نوعه للإسلام والمسلمين محفوز بحس المواجهة، ومبطن بمشاعر العداوة والكراهية لهذا الدين بسبب ما يحمله من خطر على المسيحية ومملكتها الممتدة على شواطئ المتوسط (بلاد الشام ومصر وشمالي إفريقية).

وقد أشار ألبرت حوراني إلى هذا الجهل فكتب في مؤلفه الرائع **الإسلام في الفكر الأوربي**:

«ومع بعض الاستثناءات، فكر المسيحيون عن الإسلام، وخلال ألف السنة الأولى أو نحوها من المواجهة، في حالة من الجهل» [٢].

وسمّى ريتشاردز سوذرن القرون الخمسة الأولى أو نحوها من هذه المواجهة بـ «عصر الجهل» (٣) "Age of Ignorance"

وصنف هذا الجهل في نوعين: جهل «الفسحة الضيقة» "confined space" وجهل «الخيال المنتصر "triumphant imaginatoin"

«وكان النوع الأول السمة المهيمنة على الموقف الغربي من الإسلام خلال أربعة القرون الأولى بعد عام ٧٠٠م، وكان الثاني من خلق السنوات الأربعين من عام ١١٠٠م وحتى نحو عام ١١٤٠ والموقف المميز لها».

ويشرح سوذرن النوع الأول أو جهل «الفسحة الضيقة فيكتب:

«وهذا هو من نوع الجهل الخاص بنزيل السجن، يسمع إشاعات عن أحداث في الخارج، ويحاول أن يمنح شكلاً لما يسمع مستعيناً بأفكاره المسبقة. لقد كان الكتاب الغربيون قبل عام ١١٠٠م في هذا الوضع بالنسبة للإسلام. فهم لم يعرفوا فعلياً أي شيء عن الإسلام بوصفه ديناً: لقد كان الإسلام بالنسبة لهم واحداً من بين عدد كبير من الأعداء المهددين للمسيحية من كل الاتجاهات، ولم يكن لديهم أي اهتمام بتمييز عبدة الأوثان الشماليين، والسلافيين، والمجريين من نزعة الإسلام في التوحيد، أو تمييز البدعة المانوية من بدعة محمد. وليس ثمة علامة على أن أحداً ما في أوربة الشمالية قد سمع حتى باسم محمد، ولكن، الكتاب اللاتينيين وعلى الرغم من جهلهم، لم يُتركوا تماماً دون مفتاح لمكان المسلمين في المخطط العام للتاريخ العالمي. وقد يسرت التوراة هذا المفتاح (٤).

وكان رأي الأوربيين في الإسلام في تلك القرون الأربعة ونيف:

«حصيلة الجهل، ولكنه من نوع معقد على نحو خاص. وكان الناس الذين طوروا هذا الرأي أناساً يكتبون عما اختبروه على نحو عميق، وقد ربطوا بين تجريتهم وبين الأساس المكين المتاح لهم- التوراة.

لقد كانوا جاهلين بالإسلام، ليس لأنهم كانوا بعيدين عنه مثل الباحثين الكارولنجيين، بل لأنهم كانوا على النقيض من ذلك، في وسطه. وإذا ما رأوا أو فهموا القليل مما دارحولهم، وإذا لم يعرفوا أي شيء عن الإسلام بوصفه ديناً، فمرد ذلك أنهم لم يرغبوا بمعرفة أي شيء» . (٥)

وعندما يلتفت المرء إلى جهل «الخيال المنتصر» الذي ساد بداية فترة الحروب الصليبية التي شنها الغرب المسيحي على دار الإسلام في الشرق، فإنه يلاحظ أن الحملات الصليبية التي وضعت الغرب وجهاً لوجه أمام الإسلام والمسلمين لم تولّد أية معرفة حقيقية عن الإسلام ونبيه وأتباعه.

يكتب سوذرن عن هذا النوع الثاني من الجهل فيقول:

«لقد رأى الصليبيون الأوائل، وأولئك الذين تبعوهم مباشرة إلى فلسطين، وفهموا، وعلى نحو عادي، القليل من المشهد الشرقي. ذلك أن النجاحات المبكرة لم تشجع أي ردود أفعال آنية باستثناء ردود أفعال النصر والاحتقار. ولكنها جعلت كذلك دين الإسلام ومؤسسه وللمرة الأولى مفاهيم مألوفة في الغرب. وقبل عام ١١٠٠م لم أعثر إلا مرة واحدة على ذكر لاسم محمد في الكتابات الوسيطة خارج إسبانية وجنوبي إيطالية. ولكن ومنذ نحو عام ١١٢٠م كان لدى كل واحد في الغرب صورة ما عما عناه الإسلام وعما هو محمد. وكانت الصورة واضحة على نحو متألق. ولكنها لم تكن معرفة وتفاصيلها كانت حقيقية عرضًا. لقد كان مؤلفوها ينعمون بجهل الخيال المنتصر»(٦).

وثاني: ما يلاحظه الباحث في طبيعة المعرفة الاستشراقية أن موضوعها وهو الشرق وأهله تاريخًا وثقافة ومجتمعًا مغيب ومفتقد فيها، وأن صلتها به صلة واهية ويكفي المرء أن يتتبع صورة الشرقي في الكتابات الاستشراقية حتى يتبين مقدار ما يكنه المستشرق من احترام لموضوعه من جهة، ومقدار ما تنطوي عليه هذه الكتابات من عنصرية صارخة تبعث على الأسى من جهة أخرى. يكتب رضوان السيد عن صورة الشرق في الوعي الغربي ولا سيما لدى المستشرقين فيقول:

«إن المثقفين الغربيين (والمهتمين منهم بالشرق على الخصوص) ميّزوا الشرق بصورة متخيلة إرضاء لميول ومصالح وأحلام، وتمييزًا له عن الغرب الذي يبقى هو بدوره مفهومًا غائمًا شديد العمومية. والدليل على ذلك أنه في ظل هذا المفهوم للشرق ظهرت رؤى انترويولوجية وإثنية وفكرية تحوّل الشرق هذا إلى حقل تجارب لفروض ونظريات متخلفة من وجهة نظر تاريخ العلوم وفلسفتها، ومن وجهة نظر علوم الحياة والاجتماع. لقد ظهر العرق السامي بخصائصه الخُلقية والعقلية فظهرت في المقابل الإثنيات الأخرى. وبرز في هذا المجال ارنست رينان وجوتييه وجوبينو. ومع ماكس فيبر وعلم الاجتماع الوظيفي وأنثروبولوجيا المجتمعات البدائية، والرؤية الماركسية لما سمّي نمط الإنتاج الآسيوي، برزت فرضية المجالات الثقافية المتمايزة في العالم؛ تلك التي طوّرها استشراقيًا كارل هينرش بيكر وشيدر؛ وبلغت ذروتها في الدراسات الإسلامية على يد ليفي ديللافيدا وجوستاف فون غرينباوم» (٧).

وبالتالي: فإن الشرق نادرًا ما يُقصد بوصفه مصدرًا للمعرفة عن نفسه، أو عن

تاريخـه، أو ثقافتـه أو أدبه، بحجة كـونه داخليًـا تـأسـره الذاتيـة وتبـعـده دائرة الموضوعية objectivity واللاانحياز impar- tiality التي ينفرد الغربي بوصفه خارجيًا غـيـر منحـاز في سكناها والتـربع على عرشها. والشرق مهم وما يتصل به مهم بمقدار صلته بالغرب واهتماماته ومصالحه وأهوائه وليس له وجود مستقل بنفسه ولا يمكن النظر إليه من خلال منطقه الخاص به، أو نظامه الذي يحكم أي وجه من وجوه حياته أو وجوده.

وهكذا فإن اهتمام الغرب في دراسته للتراث اللغوي والديني للشرق قد انصرف إلى تلك الجـوانب المتـصلة بالأراضي المقدسة والتوراة وأسفارها وترجماتها، أمام الجوانب الأخرى المتصلة بتاريخ الشرقيين ومـواريثهم وثقافتهم ومجـتمـعاتهم فقد درست لتؤكد طبيعة الهوية الأوربية التي تقف على النقيض من الهوية الشرقية في كل وجه، فهي الإيجاب برمته مقابل السلب برمته والذي يمثله الشرق.

وثالث: مـا يمكن مـلاحظتـه في هذه المعـرفـة الاسـتـشـراقـيـة أنها قد ارتبطت بمنتجها، وعلى نحو شامل، ارتباطًا عضويًا وعبـرت أسـاسًـا عـمـا يريد أن يعـرفـه، أو يؤكده، أو يلفقـه، أو يخلقـه، ليسوغ تحت مظلتـه كل أفعـاله تجاه الشـرق. لقد كـانت هذه المعـرفـة مظلة أيديولوجـيـة لكل مـا ارتكبـه الغـرب بحق الشرق تسوغـه بشتى الذرائع التي يغلب عليها التفكير العنصري المشروخ. وكما حاول إدوارد سعيد أن يدلل في كتبـه **الاستشراق** (١٩٧٨)، **قضية فلسطين** (١٩٧٩)، **تغطيـة الإسـلام** (١٩٨١)، **والثقافة والإمبريالية** (١٩٩٣)، وغيرها فإن المعرفة كانت شريكة متواطئة للإمبريالية الأوربية في توسعها في سائر العالم في القرنين الماضيين، حيث وظفت في مواجهة الغرب لسائر العالم ولا سيما الشـرق، وأسـهـمت في تدبره واحـتـوائه واحتلاله واستقلاله وقمع تطلعات أهله ليـبـقى باسـتـمـرار مـجـرد كـوكب تابع للحواضر الغربية مراكز القوة والمعرفة.

ورابع: ما يلاحظه المرء في هذه المعرفة الاستشراقية أنها لا تنهض لأي مقارنة مع نظيراتها ولا سيما المتصلة بالآخر الأوربي. فـضـلاً عن كـونهـا أبعـد مـا تكون عن الموضـوعـيـة، ومحـفـوزة أسـاسًـا بدوافع الهـيـمنة والسيطرة على الآخـر، وحـاملة لجـملة من التـضـمنات الأيديولوجـيـة المريضـة، فإنها لم تحقق أي فتح معـرفي يمكن أن يسـجل لهـا، بل كـانت في أغلب الأحيان مجرد توسّع تطبيقي للون معرفي غـربي، ينتمي إلى طبقـة أدنى فمؤلفات الكثـيـر من المستـشـرقين، وإن بدت في ظاهرها متقدمة منهجيًا، متخلفة معرفيًا عن الكثير مما أنتجه الغرب في الحقول المعـرفـيـة الإنسـانيـة نفسـهـا والمتصلة

بالمجتمعات الغربية نفسها، وحسب المرء أن يقارن بين كتاب برصد تاريخ الفلسفة العربية الإسلامية، أو الأدب العربي في زمن ومكان معينين، مع تاريخ آخر لفلسفة قومية أوربية، أو أدب أوربي قومي، حتى يتبين المسافة التي تفصل بينهما معرفياً ومنهجياً. ذلك أن الغالب في هذه المؤلفات أنها تقوم على أساس واهن من معرفة اللغات الشرقية، وفهم مغرض قاصر خارجي للإسلام وثقافاته الغنية المختلفة عبر الزمان والمكان، وهما غير كافيين لتحقيق أي إنجاز على أي صعيد. وإن احتج بعضهم بأن شهادة الشرقي وآراءه غير مقبولة لتخلفها الناجم عن تخلفه، فإن شهادةً لواحد من كبار مستشرقي الجيل القديم ربما كانت في هذا الموضع. يكتب برنارد لويس عن الوظائف والمهمات التي يسندها المجتمع الغربي للمستشرق وعن كفاءته في أدائها فيقول:

«فالمستشرق الكلاسيكي كان قد تربّى في أحضان علم اللاهوت والفيلولوجيا وأحياناً علم التاريخ. وفجأة راحوا يطلبون منه أن يتحمل مسؤولية السياسة الحديثة والاقتصاد والمجتمع. وقبل المستشرق بذلك طوعاً أو كرهاً وراح يتدخل في كل شيء ويناقش كل شيء من المعلقات الجاهلية إلى الصناعة البترولية والبنك الحديث، وكان يتحدث عن كل ذلك بالهيبة العلمية نفسها، ولكن ليس بالكفاءة نفسها للأسف» (٨)

وعندما يلتفت المرء إلى وظيفة المعرفة الاستشراقية، أو مجموعة الوظائف التي أدّتها خلال تاريخها الطويل، فإنه يلاحظ وبكل أسف، وعلى الرغم من تقديره لجميع الجوانب الإيجابية التي تنطوي عليها بعض الأعمال الفردية التي أنتجها المستشرقون متحدين بذلك تيّار التقليد الجارف للاستشراق، جملة من الأمور التي ربما كان من أبرزها:

أولاً: أن هذه المعرفة الاستشراقية لم تقدّم على وجه الإجمال، وعلى نحو مباشر، أية خدمة حقيقية لموضوعها الذي هو الشرق والشرقيون. وبدلاً من أن تسهم، بوصفها معرفة إنسانية، في الارتقاء بأي وجه من وجوه حياة الشرقيين، فإنها في الغالب كانت وبالاً عليهم، لأنها لم تستخدم إلا للسيطرة على مقدّراتهم، واحتوائهم، واستغلال خيراتهم، وربما سلبهم كل ما يحفظ عليهم إنسانيتهم. فقد وظّفت أساساً من أجل خدمة منتجها الذي أفاد منها أية إفادة في مواجهته للآخر الذي كان الشرق: يغزوه حيناً، ويحتله حيناً، ويستغله حيناً ثالثاً، ويحبط مساعيه نحو التقدم حيناً رابعاً، ويحدّ من طموحاته في بناء مستقبل أفضل لأبنائه حيناً خامساً، مما يمكن التدليل عليه بإسهاب في التاريخ الحديث لعلاقة الشرق بالغرب ولا سيما في القرنين الأخيرين.

ثانيًا: أن هذه المعرفة الاستشراقية لم تسهم، ولو بتواضع، في تحسين العلاقات المتبادلة بين الشرق والغرب؛ وعلى الرغم من أن الناس يكونون عادة أعداء ما يجهلون، وأن المعرفة بتبديدها للجهل يمكن أن تبدد العداوة كذلك، فإن المعرفة الاستشراقية لم تسهم إلا في تأجيج نار العداوة والبغضاء والكراهية تجاه الآخر، بل إنها في حقيقة الأمر خلقت منه صورة نقيضًا في كل وجه للغرب الذي سعى إلى تأكيد هويته إيجابيًا من خلال إسقاط كل الصفات السلبية على «الآخر» الشرق. وهكذا حاولت هذه المعرفة ترسيخ صفات العقلانية، والديموقراطية، والمجتمع المدني، والجدّ، والنظام، والحضارة في حديثها عن «الأنا» الغربي، مقابل صفات العاطفية، والاستبداد، والمجتمع التقليدي، والكسل، والفوضى، والبربرية في حديثها عن «الآخر» الشرقي، بل إن هذه الصفات السلبية عُزيت، في رأي المستشرقين، في نهاية المطاف إلى الإسلام منبع كل الشرور التي تسود المجتمع الشرقي.

ولعل آخر فصول هذا الدور السلبي الذي أدته هذه المعرفة ما نشهده مؤخرًا من سعي الاستشراق بكل مؤسساته القديمة والحديثة إلى وضع الإسلام في مواجهة الغرب، بديلاً عن العدو الشيوعي الذي انهارت مقاومته بانهيار الاتحاد السوفيتي وكتلة الدول الاشتراكية، يتخذه عدوًا يسعى إلى احتوائه بشتى السبل، ولا سيما بعد أن صُوِّر على أنه موطن الإرهاب، والأصولية، والكراهية للآخر الغربي. وما رواج حديث صناع القرار في المجتمعات الغربية عن «**صدام الحضارات**» وعن ضرورة حماية الأنموذج الغربي من التهديد الذي تمثله الحضارات الأخرى وبخاصة الحضارة الإسلامية إلا مؤشر واحد على الدور الخبيث الذي تؤديه هذه المعرفة في بث سوء التفاهم بين الشرق والغرب وتعزيزه والترويج لمناخ المواجهة التي ستنتهي حتمًا بغلبة القوي/ الغرب الذي يريد أن يكون السيد الأوحد في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد New World Order، وهيمنة نزعة العولمة التي تيسّر للغني والقوي سوقًا لا حدود لها، ومواد أولية رخيصة، وأيادي عاملة بخسة، وأنظمة وقيودًا بيئية مرنة لا تعيق الاستثمار الواسع للشركات الكبرى التي باتت المحرك الأكثر أهمية للسياسة الدولية.

ولكن **عقب أخيل** الذي يكمن فيه مقتل المعرفة الاستشراقية بوصفها معرفة عن «الآخر» هو استبعادها الذي يكاد يكون مطلقًا لهذا الآخر من فسحة انتاجها ونشرها على الرغم من أنه يفترض به أن يكون في المركز منها ما دامت قد اتخذته موضوعًا لها. ولكن واقع الحال أنها تنتج وتنشر بمعزل تام عنه، فهي تتجاهله أولاً

بوصفه موضوعاً Subject matter لها. على الرغم من أن طبيعة المادة المدروسة هي التي تحدد عادة الطريقة الأمثل لتدبرها فإن الغالب على سلوك منتجي المعرفة الاستشراقية أنهم يقيسون كل شيء شرقي بمقاييسهم، ويسقطون عليه معاييرهم، وبالتالي فإن حكمهم عليه إيجاباً أو سلباً إنما يكون بمدى اقترابه أو ابتعاده عن الأنموذج الغربي السامي والذي هو المثال والمآل بالنسبة لأهله: المثال الذي ينبغي أن يحتذى، والمآل الذي يجب أن ينتهي به كل مسعى شرقي في طريق التنمية والتطور والتقدم والحداثة. وهي تتجاهله ثانياً بوصفه متلقياً لها لأنها، إلا في القليل أو النادر جداً، تنتج عادة بلغة غير لغته، وأطر مرجعية غريبة عنه، وبحساسية قد تنافي حساسيته، بل ربما لا تبالي بوجوده أو بقيمه أو بمعاييره أو أذواقه أو رغباته أو تطلعاته أو مطامحه. وقد تُقدم أحياناً على انتهاك حرماته وتدنيس مقدساته والعبث بكرامته.

والأهم من ذلك كله أنها تستبعده شريكاً لها في إنتاج المعرفة المتصلة به. ولذا فإننا نادراً ما نرى منتجي هذه المعرفة من الخارجيين يصدرون جزئياً أو كلياً عما ينتجه الداخليون من بحث ودراسات وكتب ومقالات عما يتصل بهم. وعلى الرغم من أن بعض منتجي هذه المعرفة من الخارجيين يعتذرون عن تجاهلهم المقصود أحياناً لما ينتجه الداخليون بصعوبة الحصول على المراجع الشرقية، أو بتدني مستواها (مما يعكس النظرية العنصرية المحكومة بعقدة التفوق)، أو تخلف مناهجها، وغير ذلك، فإن معظمهم ينظر باستخفاف إلى ما يكتبه الداخليون حتى عندما يكون ذلك متيسراً بلغة أجنبية يعرفونها، فاللغات الشرقية ولا سيما العربية، لم تتخذ بعد لغة بحث وتنقيب في الأوساط الاستشراقية ومنتجو المعرفة الاستشراقية من الخارجيين لا ينفقون وقتاً وجهداً كافيين في التنقيب عن المعلومات والمعرفة في المكتبة الشرقية (أي في مجموع الكتب المدونة باللغات الشرقية) لسبب في غاية البساطة هو أن معرفتهم بهذه اللغات لا تسمح لهم بالمراجعة السريعة المجدية للباحث الحريص على وقته وجهده، والمستشرق قد يستغرق أسابيع عدة في قراءة كتاب أو مرجع متيسر بلغة شرقية وربما كان بحاجة إلى مساعدة حتى يستقيم له فهمه لهذا الكتاب أو المرجع- الأمر الذي يجعله يلجأ إلى الاكتفاء بذكره في حواشيه وبيبليوغرافيته وتجاوزه بأحكام سريعة تسوغ صنيعه الذي كان يمكن أن يوبَّخ عليه لو أنه كان يكتب في حقل معرفي آخر غير الدراسات الشرقية، من مثل الدراسات الفرنسية أو الألمانية أو الإيطالية أو الروسية، لأن فعله هذا غير مقبول في أي تقليد بحثي جامعي

يحرص على الحد الأدنى من احترام الذات.[٩]

ومعنى هذا أن ثمة حاجة ماسة لإنشاء تقليد ثقافي بديل عن المعرفة الاستشراقية الذي لا يرقى بوضعه الحالي إلى الطموحات الإنسانية في معرفة النفس أو معرفة الآخر، ولا سيما أن المعرفة الإنسانية، كما أصبح واضحًا فيما تقدم من سطور، لا تكون معرفة حقيقية جديرة باسمها دون أن تكون مؤسسة على الشراكة بين الأنا والآخر. وبعبارة أخرى ثمة حاجة ماسة إلى «استشراق جديد» يستند إلى أسس تحكم إنتاجه من جهة مثلما توجه مقاصده من جهة أخرى.

وأول هذه الأسس هو قيام الاستشراق الجديد على مبدأ الشراكة المعرفية بين جميع منتجي المعرفة المتصلة بالشرق بصرف النظر عن قومياتهم وأجناسهم وأديانهم ولغاتهم. ويقع على رأس هؤلاء «الداخليون» The Insiders أنفسهم موضوع الدراسات الشرقية أو «الشرقيون»، وهناك «الخارجيون» The Outsiders الذين يشملون الأوربيين الجار الأقرب للشرق، والآسيويين، والأفريقيين، والأستراليين، والأمريكيين اللاتينين فضلاً عن الشريك الأمريكي الشمالي الذي يحاول اليوم تدويل، أو بالأحرى عولمة، الدراسات الشرق أوسطية على نحو ييسر له الهيمنة على برامجها وتوظيفها لتعزيز مكانته في ظل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد.

والمرجو من هذه الشراكة زعزعة المركزية الغربية المهيمنة على الدراسات الاستشراقية الراهنة، وإفساح المجال أمام أطراف أخرى للإسهام في تشكيل التقليد الجديد الذي ينبغي أن توظف حصيلته في خدمة الإنسان بصرف النظر عن هويته أو جنسه أو دينه أو نوعه، ولا سيما أن هذه المعرفة نتاج جهود شركاء كثيرين من الشمال والجنوب، والشرق والغرب، وليس ثمة من مسوغ لاحتكار حصيلتها من قبل شركاء معنيين وتوظيفها لخدمة مصالحهم الآجلة والعاجلة على حساب شركاء آخرين وبخاصة الداخليين أنفسهم.

وفضلاً عما تقدم فإن من الضروري توجيه إنتاج هذه المعرفة على نحو يحقق جملة من المقاصد الإنسانية النبيلة والتي ربما كان من أهمها:

أولاً: الإسهام بالارتقاء بمختلف وجوه حياة «موضوعها»، أي الشرقيين أنفسهم. فمن العبث بحق أن نفكر بإنتاج معرفة إنسانية، وننفق في سبيل ذلك الجهد والوقت والمال ثم لا نفكر فيما يمكن أن تسهم به من فهم لماضيه، واستيعاب لحاضره، وضمان لمستقبله. أما أن يكون هذا الموضوع آخر من يفيد من هذه المعرفة، أن تُتَّخذ، كما هو عليه الحال الآن، أداة لاحتوائه، وتدجينه، واستغلاله، والتحكم بمقدارته، وسلب ثرواته، فإن ذلك يعد جريمة أخلاقية لا تغتفر مهما كانت دوافعها، أو مسوغاتها، أو ظروفها، ولا

يستطيع المستشرق أن يزعم أن غرضه من إنتاج المعرفة المتصلة بالشرق هو الحقيقة، أو العلم، أو المعـرفـة، بصـرف النظر عن وجـوه توظيفـهـا فـهـذا ليس من شـأنه، ولايعنيه في شيء. ذلك أن المعرفة لا ينبغي بحال أن توظف إلا في خدمة الإنسان فهو منتجها وموضوعها وغايتها.

ثانياً: الإسهام في تعزيز التفاهم بين الأمم والشعوب، ولا سيما بين الشرق والغرب ذلك أن الإنسان يكون عادة عدو ما يجهل أو من يجهل، والمعرفة يمكن أن تبدد العداوة بتبديدها للجهل، ولما كانت المعرفة الاستشراقية الراهنة مؤسسة على الجهل ذي التاريخ الطويل فقد قادت إلى العداوة بين منتجها (الغرب) وموضوعها (الشرق)، ولذا فإن من المرجو من المعرفة الجديدة عن الشرق، أو من الاستشراق الجديد القائم على الشراكة المعرفية، أن تكون المدخل السليم لبناء علاقة سليمة بين الشرق والغرب وتعزيز التفاهم بينهما، وليس إذكاء الحقد والكراهية والشكوك والمخاوف بين الفريقين، والإرهاص بصدام بين حضارتيهما.

وصفوة القول إن الاستشراق (أو تلك المعرفة التي ينتجها «الآخر» عن الشرق عامة، والشرق العربي خاصة: تاريخًا وثقافة، ومجتمعًا) يظل، مهما بالغ المرء في موقفه الإيجابي منه، ومهما أسرف في تقديره لإنجازاته المعرفية في الجانب الأكاديمي والبحثي منه، منتجًا ثقافيًا إنسانيًا محكومًا بظروف المواجهة بين منتجها (الغرب) وموضوعها (الشرق) وبمواقف طرفي هذه المواجهة، وأهوائهم، وأفكارهم المسبقة كل عن الآخر، ومصالحهم الدنيوية في عالم تحفزه المصالح أكثر مما تحفزه القيم والمثل والمبادئ. إنه معرفة دنيوية منغمسة تمامًا في الظروف والشروط المادية والمناخات السياسية والأيديولوجيات والاقتصادية والاجتماعية والثقافية لإنتاجها، وقد كانت بسبب فيروس القوة والسلطان الذي داخلها وبالاً على موضوعها عندما وُظِّفت من أجل احتوائه واستغلاله والهيمنة عليه وعلى مقدارته والتحكم بمصائره وإحباط تطلعاته نحو مستقبل أفضل. أي أنها، على خلاف ما يتوقعه المرء عادة من المعرفة، لم تقدم أية خدمة لموضوعها (الشرق) ولم تسع إلى الارتقاء بأي وجه من وجوه حياة أفراده (الشرقيين)، أو إلى خدمة قضية تنمية مجتمعاتهم وتقدمها وتطورها. وكانت حصيلتها مأساوية في مجال العلاقات الإنسانية بين الأمم والشعوب والثقافات المختلفة، وبدل أن تسهم في خلق تفاهم ما بين الشرق والغرب قائم على أسس مكينة من الفهم والاحترام المتبادلين، كانت وللأسف من أكبر المسهمين في تعزيز سوء التفاهم الذي يهيمن على هذه العلاقة.

ومعنى هذا أن حل أزمة الاستشراق الراهنة لا يمكن أن يتم إلا من خلال خلق بديل جذري لهذا التقليد الثقافي الملوث

بفـيـروس السلطان والمنتج في مناخ المواجهة- بديل يرقى للمقارنة مع ما ينتج من معرفة خاصة بالأمم والشعوب والمناطق الأخرى.

وبالطبع فإن خلق التقاليد لا يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها. ولكن انتظار خلق هذا البديل ينبغي ألا يطول، فالزمن لا يخدم المتقاعسين، ولا يتحول إلى قوة إيجابية تقف إلى جانب الإنسان إلا بالعمل الجاد والمخلص. كذلك فإن مهمة خطيرة كهذه لا يمكن أن تترك للآخرين ولمبادراتهم، بل يجب أن ينهض بها أساساً الداخليون من الشرقيين أنفسهم والذين يشكلون موضوع الاستشراق ولا سيما أنهم من ينبغي أن يقطفوا ثمار هذا البديل، أو ما سميته بالاستشراق الجديد. إن على الشرقيين، وبخاصة أولئك المعنيين بعملية إنتاج المعرفة عن الشرق، أن يبادروا إلى الأخذ بزمام المبادرة وتولي المسؤولية كاملة في إنتاج كل ما يتصل بتاريخهم ومجتمعاتهم وثقافتهم من معرفة، وألا يعتمدوا كل الاعتماد، أو جلّه، على «الآخر» – الغربي بشكل خاص- في إنتاج هذه المعرفة، لأنهم عند ذلك يغامرون، إن لم يكونوا يقامرون، بأمنهم واستقرارهم ومستقبلهم، والأمن الحقيقي هو الأمن المعرفي الذي يكفل المعرفة التي يحتاجها الشرقيون لفهم ماضيهم، واستيعاب حاضرهم، وبناء مستقبلهم.

الحواشي

١- د. رضوان السيد، «الاستشراق والمستشرقون بين الغلو والمغالاة»، في محاضرات الموسم الثقافي الخامس عشر: ١٩٩٩ (مؤسسة الثقافة والفنون، المجمع الثقافي، أبو ظبي، ١٩٩٩)، ص ص (١٨٥-١٨٦).

٢- انظر

Albert Hourani, Islam in European Thought

(Cambridge University Press, Cambridge, 1992), p.8.

٣- انظر

R. W. Southern,

Western Views of Islam in the Middle Ages

(Harvard University Press, Cambridge, Ma., 1978)

pp. 1-33.

٤- المرجع السابق، صص (١٤-١٥).

٥- المرجع السابق، ص (٢٥).

٦- المرجع السابق، ص ص (٢٧-٢٨).

٧- د. رضوان السيد «الاستشراق والمستشرقون بين الغلو والمغالاة»، ص ص (١٩٠- ١٩١).

٨- بيرنارد لويس،

«حالة الدراسات المتعلقة بالشرق الأوسط»، في

الاستشراق بين دعاته ومعارضيه، ص (١٣٩).

٩- د. عبد النبي اصطيف،

«الاستشراق الأمريكي من النهضة إلى السقوط»،

المستقبل العربي (بيروت)، العدد ٢٣٣، تموز ١٩٩٨، ص ص (٣٩- ٤١).